مفهوم التواصل في التراث البلاغي العربي

الأستاذة نصيرة بن منصور – جامعة الأغواط – الجزائر

قامت في الآونة الأخيرة دراسات لغوية لسانية هدفها إعادة قراءة التراث العربي البلاغي على الأخص في ضوء علم الدراسات اللسانية الحديثة، كمحاولة جادة لربط ما هو موجود في التراث وبما أستجد حاليًا من مفاهيم وأسس، ومناهج متطورة قصد تأسيس دراسات لغوية حديثة تسمح بخلود هذه الذخيرة المعلوماتية التي أبدع فيها أسلافنا من نظريات ومفاهيم وآراء.

وعلى هذا الأساس قامت دراسات حديثة حول مدى إدراك البلاغة العربية لأسس نظرية التواصل وأبعادها وانضمامها ضمن أهم الاهتمامات القائمة بين الأفراد، لأن التواصل وليد الاحتكاك مع النفس والغير وأصبحت المعارف البشرية ترتكز بشكل أساس على نجاح الإنسان في توصيل رسائله باستعمال وحدات دالة في نظام تواصلي، ويكون جوهره حسن استخدام علامات لسانية تعبيرًا عن أغراضه.

وفي البداية يلاحظ ذلك التعدد في استعمال المصطلح كترجمة المصطلح الأوروبي la communication بين التبليغ والإبلاغ والتواصل والإيصال والاتصال [1]، فالتواصل في اللغة العربية يعني التلاقي أو الالتقاء (convergence) على أن كلمة تواصل على وزن "تفاعل" بينما كلمة "اتصال" على وزن "افتعال" حيث تشتق كلمة تواصل من الوصل والذي يعني جمع الشيء بالشيء، ومنها وصل المكان أي بلغ المكان، فالتواصل هو التأثير المتبادل بين طرفي أو أطراف عملية التفاعل على المواجهة[2].

أما عن الاتصال فالهدف منه هو تحقيق تأثيرات أو نتائج معينه ومن بين أهمها مدى استجابة المتلقي للرسالة، لذلك يمكن التفريق بينهما من ناحية طبيعة عملية الاتصال في حد ذاته.

ويقصد به إرسال الرسالة دون انتظار رد الفعل (الاستجابة) ، فالرسالة هنا اتصالية، أما التواصل فهو إرسال الرسالة مع انتظار الاستجابة فالرسالة هنا تواصلية[3].

وفي مقام ذكر الاتصال والتواصل يرد مصطلح "التبليغ" الذي جاء تعريفه اللغوي بعدة صور اخترنا منها:

"بلغ فلان مراده إذا وصل إليه، وبلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها وأبلغه هو إبلاغًا، وبلغه تبليغًا، ومنه قول بن الأسلت السلمي:

قَالتْ ولَمْ تَقصِدْ لقيلِ الخَنى مهْلاً فقدْ أبْلَغْتَ أَسْمَاعي

وفي حديث الاستسقاء: "وأجعل ما أنْزلتَ لنَا قُوةً وبلاغةً إلى حِين"، والبلاغ: الإيصال، وكذلك التبليغ، والبلاغ: الكتابة[4].

كما ورد ذكر التبليغ في القرآن الكريم ومشتقاته وصفا لعمل الرسل في تأدية وظيفتهم وهي إبلاغ الرسالة الربانية إلى العباد، كقوله تعالى: "فَهَلْ علَى الرُسُلِ إلَا البَلاغُ المُبين"[5]، وقوله أيضا: "وَقُلْ للذِين أُوتُوا الكِتَابَ وَالأمِيينَ ء أَسْلَمْتُم، فَإنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وإن تُوَلُوا فَإنَمَا عَلَيْكَ البَلاغُ و اللهُ بَصيرٌ بالعِبادِ"[6].

وأما تعريفه اصطلاحا، فيقصد به نقل خبر ما، من نقطة إلى أخرى، حيث يكون التبليغ مفهوما أوسع من اللغة لاعتماده على طرق عديدة لتبلغ بها الأفكار والآراء كالصوت والإشارة والكتابة واستعمال رموز خاصة[7].

ووضح عبد المالك مرتاض تعريفه في قوله: "فهو يشمل المفهوم العام للوضع الاختبار أو نقل أمر من أعلى إلى أدنى، أو من أعلى مستوى على مستوى مماثل له في الدرجة، وهو لفظ قديم الاستعمال في اللغة العربية، و الاسم منه البلاغ"[8].

فهو لهذا يشترك مع مفهومي الاتصال والتواصل في نقطة نقل الأخبار والمعلومات والأفكار من طرف إلى آخر، لتبقى نقطة الاستفهام حول ما إذا كان التبليغ يرتبط بالاستجابة مثل التواصل أم لا؟.

وللإجابة عن هذا السؤال نذكر الارتباط الواقع بين البلاغة والتبليغ حيث قال محمد الصغير بناني أن: "البيان يقصد به أيضًا التبليغ والتوصيل زيادة على التعبير"[9]، ويستدرك ليقول أن مفهوم التبليغ لا يتجاوز نقل الأخبار، أن مهمة المتكلم لا تتعدى التعبير، بغض النظر عن مدى تأثر السامع أو انتظار رد فعله"[10].

فالسؤال الذي يبق مطروحًا، هو هل ما جاء به الأنبياء والرسل من رسالات كان تعبيرًا وإيصالا بحيث يبتعد عن ضرورة الدعوة والإقناع؟.

ثم هل ما جاء به القرآن الكريم من حجج وبراهين وإعجاز بلاغي، وعلمي وحضاري... كان غير مقصود؟.

وهل كان الوعيد والتهديد والتشويق والترغيب، عبر قصص الأنبياء، يتجاوز نقل الأفكار والتعابير، ففي اعتقادنا أن معنى التبليغ يتجاوز ذلك إلى التأثير على المتلقي وتغيير سلوكه وأفكاره ومعتقداته في مقام نفسي، واجتماعي، وثقافي خاص.

وأما المصطلح المقابل للمصطلح الأوروبي "La communication" في رأي بشير إبرير فهو التواصل، حيث يقول: "كلمة "تواصل" أكثر دقة من الكلمات الأخرى، لأنها تعني كلا من المتكلم والمخاطب والتفاعل الحاصل بينهما"[11].

ويرتضي، عبد المالك مرتاض استعمال مصطلح التبليغ عن غيره معللاً ذلك: "بأن المصطلح إنما ورد في أصوله على صيغة التعدية المعنوية على حين أن معادله "التواصل" لم يرد في العربية بهذا المعنى بل هو محايد، لا يتعدى إلى أي معنى في غيره، وإنما يقتصر على ما فيه من معنى في نفسه"[12].

أما النتائج التي تنبني عليها بعض أوجه الاختلاف بين (التواصل، الاتصال، التبليغ) يمكن اختصارها وتمييز كل واحد عن الآخر، من ناحية الصيغة والمعنى والغاية في الجدول التالي:

الاتصال	التواصل	التبليغ
– على وزن "افتعال" مثل ابتكار وابتداع. – تقل رسالة ما من نقطة إلى أخرى. – رسالته اتصالية لا تنتظر الاستجابة.	– على وزن "تفاعل" تشتق من الوصل الذي يعني جمع الأشياء بالشيء. – التأثير المتبادل بين طرفي أو أطراف عملية التفاعل. – رسالته تواصلية ذات استجابة.	– معناها لغة: بمعنى الوصول الانتهاء، الإيصال الكتابة. – تقل الأفكار والتعابير على سبيل الإقناع والحجة. –رسالته تبليغية.
الاتصال الناجح = التواصل = التبليغ		

التبليغ بين البلاغة والبيان:

يعتبر علم البلاغة من أهم العلوم التي اهتم بها المسلمون اهتماما بالغًا، بقدر عنايتهم بالمحافظة على القرآن الكريم، وفهم آياته، و"استيعابها والتعرف على مراميه ومقاصده واكتشاف مواطن إعجازه، فهو فاتحة تأسيسية للمعرفة العقلانية في تاريخ أمتنا الفكري والحضاري، ولذلك نمت بين أحضانه "علم البلاغة العربية" وترعرع في ظروف علمية خاصة، وقد قال عنها أبو هلال العسكري (ت:395ه): "أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة

الفصاحة الذي به يعرف إعجاز وكتاب الله تعال بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة"[13].

فالمعرفة بهذا العلم من الضروريات التي لامناص منها، وكان تعلمه بحاجة لاكتساب مهارة اللغة وأعلى درجات الكلام، وليتمكن قارئها من التفريق بين جيد الكلام ورديئه، حرصا منه على صياغة أفكاره والتعبير عنها في أحسن صورة تتطابق فيها الوسيلة اللغوية مع الفكرة ولتكسب القدرة على توصيل المعاني مع ضمان وصولها، فإذا استنطقنا تراثنا البلاغي، وحاولنا إطالة التأمل في معانية وتعاريفه، فإننا نجد أنفسنا أمام ذخيرة علمية ضخمة متنوعة، تنوع منطلقاتها النظرية بحكم اختلاف مرجعيتها الفكرية وروافد أصحابها، فقد عنى القدماء بدراسة الكلام وأشكاله وأهميته بين الأفراد في توصيل المعاني وتبليغها فظهرت بعض الومضات التواصلية، باعتباره سلوك للفعل اللغوي وأحد أهم أشكال التواصل.

ومن العلماء البلاغين الذي كان لهم السبق في الإحاطة بهذا الموضوع والاهتمام بالتواصل الإنساني "الجاحظ" (ت: 255ه)، إذا يتمثل معلمًا بارزًا في فهم طبيعة التواصل كضرورة اجتماعية حيث يقول: "لم يخلق الله تعالى أحدًا يستطيع بلوغ حاجاته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له، فأدناهم سخر لأقصاهم، وأصلهم ميسر لأولهم وعلى ذلك أحوج السوقة إلى الملوك في باب وكذلك الغني والفقير..".[14]

فالتواصل عند الجاحظ عزيزة لا غنى عنها يحتاجها الإنسان لقضاء الحاجة والتعامل مع مختلف الطبقات وفئات المجتمع، فهو سمة عامة تخص الإنسان كانسان، بغض النظر عما يكون، يكفي بأن لغة القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا مازالت لغة تواصل المسلمين، كما أن الحكمة جاءت من قوله تعالى: "وجَعَلنَاكُمْ شُعوبًا وقَبَائِل لِتتعَارَفُوا"[15].

وهذا ما أكده الجاحظ أنه لا يمكن تحقيق ذلك الاجتماع إلا بالتواصل، الذي لا يحدث إلا بوسيلة البيان باعتباره "اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى ، و هتك الحجاب دون ضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، و من أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر و الغاية التي إليها يجري القائل و السامع إنما هو الفهم و الإفهام و أوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع ".[16]

وعليه يقر الجاحظ عملية التواصل بتحديد عناصرها على النحو التالي:

1. القائل: و هو يقابل المتصل البليغ.
2. السامع : و هو يقابل المتلقي و المستقبل.
3. كل شيء كشف القناع : و يقابل الرسالة.
4. الدليل و أصناف الدلالات على المعاني من لفظ أو غير لفظ: وهو يقابل الوسيلة.
5. الغاية التي يجري إليها الفهم و الإفهام: و هي تقابل الهدف و التأثير.

ومما لا يفوتنا أيضا.. ما أشار إليه قدامة بن جعفر (ت 337هـ) في كتابه: "نقد النثر"[17] عن حديثه في شرف البيان وفضيلة اللسان قوله:" ولشرف البيان وفضيلة اللسان قال أمير المؤمنين (علي كرم الله وجهه) عليه السلام:" المرء مخبوء تحت لسانه فإن تكلم ظهر" وهذا ما أشرف الكلام وأحسنه وأكثره معنى، وأخصره، لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته إلا إذا خاطبته[18]".

وهذا ما عزز قول عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): "أعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان،ونبه فيه على عظم الامتنان، فقال عز من قائل:" الرحمَان عَلَمَ القُرآن، خَلقَ الإنْسَان، عَلَمَهُ البَيان"[19]، فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه، ولا صح

من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار عن معانيها، واستوت القضية في موجودها وفانيها".[20]

ومن تلك المفارقات اللفظية ما يستطرد إليه فخر الدين الرازي (ت606هـ) في معرض حديثه عن مبدأ التواصل في قوله: "أن الإنسان خلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته، فاحتاج إلى أن يعرف غيره ما في ضميره ليمكنه التوسل به إلى الاستعانة بالغير"[21]، وهذه الاستعانة ناتجة عن حاجة البشر بعضهم لبعض لضمان بقاء الجنس الإنساني على وجه البسيطة إذ لا يفي الواحد بحاجاته من عيش وسكن واتقاء الغوائل إلا بالتواصل وإن اختلفت أشكاله وطرقه كالتي أشار إليها فخر الدين الرازي أيضا في قوله: "والطرق كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء، إلا أن أسهلها وأحسنها هو تعريف ما في القلوب والضمائر بهذه الألفاظ"[22].

وأما عن البيان، فقد وردت له مجموعة من التعاريف منها المعنى اللغوي الذي يمكن اختصاره في أربعة نقاط هي[23]:

1- الكلام على صحة مخارج الحروف،ثم على العيوب التي سببها اللسان أو الرئتان، أو ما قد يصيب الفم من التشوه.

2- الكلام على سلامة اللغة والصلة بين الألفاظ بعضها ببعض والعيوب الناشئة من تنافر الحروف يمحه السمع.

3- الكلام على الجملة، والعلاقة بين المعنى واللفظ، ثم على الوضوح والإيجاز والإطناب والملائمة بين الخطبة والسامعين لها، والملائمة بين الخطبة وموضوعها.

4- الكلام على هيئة الخطيب وإشاراته.

أما عن تعريفه اللغوي فقد ورد لفظه في القرآن والحديث وفي الدرس البلاغي فهو بمعنى الفصاحة واللسن مع الذكاء، وهو أيضا ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها.

وفعله: "بأن" الثلاثي يستعمل لازما فقط، وغيره من الأفعال وهي: أبان، وتبين واستبان، وتستعمل مادته بمعنى الوضوح والانكشاف.

وأما في الحديث الشريف: "كقوله صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة" والبيان في هذا الحديث بمعنى المهارة في الترجمة عن معاني النفس في عبارة مؤثرة، وبه شبه الرسول صلى الله عليه وسلم، لتمكنه في نفس سامعه وقلبه[24].

أما في القرآن: هذا البيان ورد في مواقع متعددة منها:

قوله: "هَذَا بَيَانٌ للنَاسِ وَهُدى وَموعِظَةٌ للمُتقَين"[25] ،المعنى إيضاح لسوء العاقبة وتبين وتنبه الكاذبين[26]، وأيضا قوله تعالى "خَلَقَ الإنْسانَ، عَلَمَهُ البيَان"[27]، فقرن ذكر البيان بخلف الإنسان لاستعماله في الإفصاح عما في ذاته"[28].

ومما جاء في الأثر تلك المقابلات بين البيان والبلاغة، أن البيان بمعنى البلاغة مرادفا لها، ويظهر ذلك من خلال قول جعفر بن يحي عندما سأله ثمامة ما البيان قال: "أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لابد منه أن يكون سليما من التكفل بعيدا عن الصنعة بريئا من التعقيد غنيا من التأويل وها هو تأويل قول الأصمعي البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر"[29].

معنى هذا أن ما قيل في البيان تأويل ما قيل في البلاغة ومن هنا فالبيان مرادفا للبلاغة[30].

فهي عند الجاحظ ملكة للتبليغ وقد تكون صفة يصير بها الكلام بليغا وقد يكون للكلام البليغ نفسه والبيان كما جاء في عنوان الجاحظ البيان والتبيين مساويا كما نعرفه اليوم باسم "البلاغة"[31]. فكأن بالبلاغة ذلك العلم الشامل الذي

يكتسب أبعادا متعددة إن أضاء بعضه بقي بعضه مظالما يحتاج للبحث والتفصيل في مفاهيمه ، لينتهي بنا القول أن كل من البلاغة و البيان مفاهيم معادلة لمفهوم التواصل

2– مفاهيم التبليغ في البلاغة العربية:

من الطبيعي أن يتصدر"مفهوم البلاغة"مقالنا هذا، باعتباره موضوعه الأصلي والمركز الذي تدور فيه ما ورد في باقي القضايا الأخرى، ونظرا لكثرتها وتشعبها ارتأتنا أن ننتهج منهج حمادي صمود في كتابة"التفكير البلاغي عند العرب"، في تقسيمه مفاهيم البلاغة إلى ثلاثة أقسام هي[32]:

أ– القسم الأول:

وهو قسم تنحصر فيه وظيفتها في مؤدى الكلمة اللغوي أي تعريف البلاغة لغويا من إبانة وإفصاح عباراته، لتكون وعاءا سهلا لتوصيل المعاني والأفكار بأسهل الألفاظ بعيدا عن تصويرها الفني الإبداعي والجمالي، فتأخذ منها البلاغة طابع التبليغ بشتى أشكاله وجاء في تعريفها لغة: قول أبا هلال العسكري: "البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذ انتهيت إليها وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء، منتهاه والمبالغة في الشيء، الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة أنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه (...) والبلاغ أيضا التبليغ في قوله عز وجل: "هَذَا بَلاَغ لِلنَاسِ"، أي تبليغ..."[33].و منه نلاحظ أن البلاغة لديه تنطلق من فكرة التوجه إلي المستمع باعتباره المقصود من التواصل ، فالمتكلم يراعي من يوجه إليه الكلام، و في إطار هذا التوضيح، و هذا الطرح دعت البلاغة الجديدة إلي الاهتمام به ، إذ يذكر بيربلمان Perlman " أن ما ينبغي أن يحتفظ به من البلاغة التقليدية أنما هو فكرة المستمعين التي تنبثق من فهم طبيعة الخطاب ، فكل قول يوجه لمستمع ، و غالبا ما ننسى أن الشيء ذاته يحدث لكل مكتوب ، و بينما نتصور الخطاب بالنظر إلي المستمعين ، فإن غياب القراء ماديا ربما يجعل الكاتب يظن أنه وحده في هذا العالم ،

بالرغم من أن نصه في الواقع مشروط دائما بهؤلاء الذين، واعيا أو بشكل غير واع.."[34].

كما اشترط صاحب الصناعتين في موضع آخر فكرة جوهرية و هي أن يكون المعنى مفهوما و اللفظ مقبولا ،حين قال: "قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "البلاغة إفصاح قول عن حكمة مستغلة، وأبانه عن مشاكل، ومثله قول الحسن: "البلاغة إيضاح الملتبسات وكشف عوار الجهلات، بأسهل ما يكون من العبارات، وقريب منه قول الحسين بن علي رضي الله عنهما: البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة"[35].

وربما قد لخص الجرجاني جل هذه المعطيات و التعريفات اللغوية للبلاغة حين قال هي: "الوصول إلى الغاية المنشودة"[36].

فالانتهاء والوصول والتبليغ والتوصيل كلها مفاهيم جذرية للبلاغة العربية فلهذا ولأسباب أخرى نظرت إليها الدراسات الحديثة على أنها المقابل الصحيح لعلم التواصل[37].

وهكذا اكتست البلاغة حلة لازمة لها انطلاقا من تعريفها اللغوي ميزة الإيضاح وميزة الكشف ألا وهي "تسهيل العبارة" لتبسيط فهم ما يقال وضمان نجاح التواصل بين الأفراد، ولتخرج أيضا ظاهرة التكلف والتصنع، المبالغ فيه والعميق للفهم والتواصل، "فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه وقبح موقعه، من ذم التكلف أن الله عز وجل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتبرؤ منه، فقال: "قُلْ مَا أَسْأَلُكم مِن أجْر وَمَا أنَا مِنَ المُتَكلَفِين"[38]، وألا يظن أن البلاغة إنما من الإغراب في اللفظ والتعمق في المعنى، فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى، والبليغ ما بلغ المراد"[39].

ب– القسم الثاني:

يركز هذا القسم على مقاصد البلاغة ووظيفتها، في وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة واختيار الأساليب والغرض المراد للتعبير عنه ليتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلم، إقناعه وغايتها هو وصول المرسل لمقاصده بأنجع الطرق.

وهكذا ما أكد عليه حازم القرطاجي (ت:684ه) في "المنهاج" حيث ربط بين البلاغة وأشكالها (الخطابة والشعر) بمقصدها في قولها: "لما كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخيل والإقناع، وكان لكليهما أن تخيل أن تقنع في شيء من الموجودات الممكن أن يحيط بها علم إنساني"[40].

ومن بين التعاريف التي شملت على ما سبق قول عمرو بن عبيد في تعريفه للبلاغة هي: "ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار"[41].

فهي إذن تتعدى التبليغ من طرفين إلى فكرة امتلاك ذهن المتلقي (فكره، قلبه تصوره) إلى ما يمكن أن يسير أو يغير سلوكه ومعتقداته.

كما يقول الجاحظ في تعريف البلاغة: "حدثني صديق لي، قال قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا استعانة فهو بليغ فإذا أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب لإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق"[42].

فأما الشطر الأول من هذا التعريف: "كل ما أفهمك، .... بليغ"، هنا يراد بها "الإفهام" أي التبليغ، ويمكن عده تعريفا لغويا للبلاغة، وذلك أن قدرة المتكلم أثناء عملية التبليغ هي بلوغ غايته من إفهام السامع والوصول إلى غرضه على أتم وجه وأيسره.

أما الشطر الثاني من التعريف: "فإن أردت اللسان... صورة الحق" يبين فيه النزعة الجدلية، التي تجيز تصوير الباطل حقا والحق باطلا [43].

ومما جاء في شرح وتفسير تعريف البلاغة عند العتابي هو تقسيمها إلى نوعين هما:

أ- بلاغة لسانية وعرفها بقوله: "كل من أفهمك حاجة من غر إعادة ولا حبسة ولا استعانة".

ب- بلاغة فنية: "وعرفها بأنها إظهار ما غمض من الحق وتصويره صورة الباطل وهذا التعريف يؤدي إلى الكذب والزور واستعمال الحيل لمراوغة المتلقي واكتساب عطفه"[44].

وعلى هذا النحو أيضًا جاء في الذكر تعريف ابن المقفع ببلاغة في كتاب الصناعتين قوله: "كشف ما غمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل"[45].

حيث جمع في هذا التعريف بين وظيفتين هما:

1- الكشف: "وهو المعنى اللغوي الذي وضحناه في بداية تعريف البلاغة من إبانة وكشف وإيضاح".

2- التصوير: وهو الصياغة اللغوية التي يلبس بها النص، وقدرتها على الإبهام والتخيل إلى درجة التأثير والإقناع[46].

ج- القسم الثالث:

ويهتم هذا القسم بمحاور ثلاث وهي:

ج-1- المحور الأول:

ما يجب أن يكون بين اللفظ والمعنى، أين يستدعي لفظ ما صورة ذهنية مطابقة لها لدى ذهن المتلقي كقول جعفر بن يحي (ت187ه): "البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليما من التكلف بعيدا من سوء الصيغة بريا من التعقيد، غنيا عن التآمل"[47].

فالبلاغة أو ما نسميه بعملية التبليغ وتوصيل المعاني تشترط مجموعة من الشروط في اللفظ واختياره منها:

1- أن يكون اللفظ مطابقا لمعناه، وهذا ما يذكرنا بأحسن تعريف البلاغة جتباه، الجاحظ قوله:"لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[48].

2- أن يؤدي غرض استعماله إن كان للإخبار أو الإعلام أو الإقناع أو الترفيه... الخ.

3- أن لا يحتاج إلى استعانة لفهمه، فيكون بسيطا بعيدا عن التكلفة.

4- أن لا تطول الفكرة حتى يتسنى المتلقي فهم الغرض الحقيقي لها .

5- أن يكون واضح المعالم يرتبط، داله بمدلوله دون الإطالة في البحث عن مدلول الكلمة والتأمل في معناها.

ج-2- المحور الثاني:

"وهو ما يجب أن يكون فيه قلة اللفظ وكثرة المعنى اعتمادا على طاقات اللغة كالإيحاء والإشارة والتلميح، فارتبطت البلاغة في العديد من تعاريفها بالإيجاز أهمها تعريف ابن المقفع الذي حسد عليه في قوله ، والذي قال عنه إسحاق بن حسان بوفوهة (212هـ) لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط، سئل ما البلاغة قال:" البلاغة علم جامع بمعاني تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، و منها ما يكون في الحديث، و منها ما يكون في الإشارة، و منها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون الاحتجاج ومنها يكون جوابا، منها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز فهو البلاغة"[49].

نستنتج من هذا التعريف أن البلاغة هي الإيجاز في موضعه، والإطناب في المواضع التي تتطلب ذلك مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومنه نستشف أيضا تلك العلاقة الواضحة بين البلاغة والتواصل في ذكره لأشكال التبليغ المختلفة وهي:

الاستماع		المتلقي.
الإشارة		التواصل غير الفظي.
الاحتجاج	الرسائل	كسبيل للإقناع والتأثير.

الجواب	رد الفعل المتلقي أو رجع الصدر أو التغذية الراجحة.
الابتداء	التفاعل القائم بين المرسل والمتلقي.
شعر– سجع– الخطيب	البنية اللغوية للرسالة.

ج–3– المحور الثالث:

وهو مراعاة الموضع والحال والاهتمام بالسياق الذي تنزل فيه العبارة أو اللفظة لأن النص لا يستمد معناه إلا إذا كان في موضعه ومقامه، حيث أهتم البلاغيون العرب بمبدأ: "لكل مقام مقال" كتعريف عبد القاهر الجرجاني، قوله: "والبلاغة في الكلام تعني مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، أي دقة في اختيار الألفاظ والأساليب في ضوء مواقعه وموضوعاته وحال السامعين الذين يلقي علمهم"[50].

وهذا الجرجاني سيشرح مبدأ مطابقة الكلام لمقتضى الحال في الاختيار الجيد للفظ وصياغته في أسلوب يناسبه داخل نظم خاص به يتوقف على شروط ثلاث:

1– موضع أو سياق الكلام.

2– موضوع الكلام.

3– علاقة المستمعين بالموضوع المطروح.

فجل هذه التعاريف وإن تعددت والتي حد بها رواد الفكر البلاغي العربي الظاهرة التبليغية وتنوعت آرائهم، إلا أن مرد أغلبها إلى مجموعة من النقاط التي تتقاطع مع أهم مبادئ نظرية التواصل الحديثة ،و التي يمكن استخلاصها من النصوص السابقة – و غيرها كثر– أن كل من تعريف التبليغ و البيان و البلاغة و التواصل مترادف، بل و يتجاوز المفاهيم كمصطلحات إلى الأنواع و الوظائف و العناصر و طبعا مع خصوصية الفكر العربي .

الهوامش والمراجع :

[1]– ينظر: بشير ابرير، التواصل مع النص من أجل قراءة فعالة محققة للفهم، مجلة اللغة العربية، الجزائر، ع4، 2001، ص: 203.

[2]– ينظر: مختار محمد فؤاد أبو الخير، التواصل والاتصال.دراسة مقارنة للتعرف على الأمصار الشعبية،المجلة الجزائرية للاتصال،الجزائر،ع1992،8،ص:493.

[3]– ينظر: صالح أبو إصبع، الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار آدام، عمان، ص 54.

[4]– ينظر: ابن منظور، لسان العرب، (مادة بلغ).

[5]– سورة النحل، الآية: 35.

[6]– سورة آل عمران، الآية: 20.

[7]– ينظر: محمد كشاش، اللغة والحواس، رؤية في التواصل والتعبير بالعلامات غير اللسانية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2001، ص 81.

[8]– عبد المالك مرتاض، نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي، تجليات الحداثة، وهران، ع1، ص 12.

[9]– محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، من خلال البيان والتبين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 199.

[10]– ينظر: المرجع نفسه، ص 199.

[11]– ينظر: بشير ابرير، التواصل مع النص، مجلة اللغة العربية، ع4، ص 203.

[12]– ينظر: عبد المالك مرتاض، نظرية الحداثة الغربية والتراث العربي، ص 13.

[13]– أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البناني الحلبي وشركاه، القاهرة ص: 07.

[14]– الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1388، 1969، ص 43، 44.

[15]– سورة الحجرات، الآية: 13.

[16]–الجاحظ :البيان و التبيين تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية،صيدا بيروت،2003 ،ج1، ص:56..

[17]– تمت الإشارة إلى أنه قد نسب هذا الكتاب "نقد النشر" لقدامة بن جعفر خطأ وأصله لـــ "أبو الحسن الكاتب" تحت عنوان: "البرهان في وجوه البيان"، ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف: "البلاغة العربية بين التقليد والتجديد"، دار الجيل، بيروت، 1412 هـــ، 1992، ط1، ص 59.

[18]– جعفر قدامة: "نقد النشر" دار الكتب العلمية، بيروت 1402 هـــ، 1982 م، ص 12.

[19]– سورة الرحمن، الآيات: 1، 2، 3.

[20]– عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة في علم البيان"، تحقيق: محمد الإسكندراني د.م.مسعود، دار الكتب العربي، بيروت، 1318 هـ، 1998، ص 09.

[21]– فخر الدين الرازي: "التفسير الكبير، مفاتيح الغيب" مطبعة البهية المصرية"، 1998، ج1، ص 25.

[22]– ينظر: المرجع نفسه، ص 69.

[23]– قدامة بن جعفر: "نقد النشر"، ص 7، 8.

[24]– ينظر: ربيعي محمد علي عبد الخالق: "البلاغة العربية وسائلها وغايتها في التصوير البياني"، دار المعرفية الإسكندرية، 1989، ص 14.

[25]– سورة آل عمران، الآية: 138.

[26]– بنظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، إنتشارات آفات، نهران، ج1، ص 465.

[27]– سورة الرحمان، الآية: 3، 4.

[28]– ينظر: ربيجي محمد علي عبد الخالق، البلاغة، ص 14.

[29]– الجاحظ، البيان والتبين، ج1، ص: 73.

[30]– ينظر: عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ص 86.

[31]– ينظر: تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي، عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، 1360، 2000، ص 326.

[32]– ينظر: حمادي صمود: "التفكير البلاغي عند العرب، أسسه، وتطوره إلى القرن السادس"، منشورات كلفة الآداب، منوبة، ص 115، 116.

[33]– أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 07.

[34]– سعيد حسن بحيري ،علم لغة النص المفاهيم و الاتجاهات ،القاهرة ،مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، ط1–2004،ص:23.

[35]– أبو الهلال العسكري، الصناعتين، ص 58.

[36]– عبد القاهر الجرجاني،ص: 05.

[37]– ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجليل، بيروت، 1312هـ، 1992، ص 56.

[38]– سورة ص، الآية: 86.

[39]– قدامة بن جعفر،نقد النثر، ص 105.

[40]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، محمد الحبيب ابن الخواجة، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1986، ط3، ص 19، 20.

[41]– الجاحظ، البيان والتبين، ج1، ص 78.

[42]– المصدر السابق،ج1، ص: 77.

[43]– ينظر: عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، ص 66، 67.

[44]– ينظر: محمد الصغير البناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبين، ص 240.

[45]– أبو هلال العسكري،الصناعتين ، ص 59.

[46]– ينظر: حمادي حمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 115.

[47]– أبو هلال العسكري ،الصناعتين ، ص: 48.

[48]– الجاحظ، البيان والتبين، ح1، ص: 78.

[49]– المصدرالسابق ، ص 78، 79.

[50]– عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 05.

***